الشعر ومراميه العالية[1]

روى المعرّي للاصمعي قوله ان الشعر باب من ابواب الباطل فاذا اريد به غير وجهه ضعف [2] وروى ابن قتيبة قوله الشعر نكد بابهُ الشر [3]

ولم ينفرد الاصمعي بهذا الوصف للشعر بل قد شاركهُ فيهِ غيرهُ. قال بعض العقلاء وقد سئل عن الشعر «ان هزل اضحك وان جدّ كذب. فالشاعر بين كذب واضحاك [4]».

ولقد نجد للاصمعي عذراً اذا نظرنا الى الجو الذي نشأ فيهِ والى التقاليد التي ورثها فقد كان في صدر الخلافة العباسية يلتفت الى عرش بغداد فلا يرى حولهُ الاَّ الندماء والعفاة من طالبي الارتزاق بصناعة الكلام . ويلتفت الى من تقدمهُ من شعراء الدولة الاموية فلا يرى غير المشادّات الحزبية والمناقضات الشخصية . وهل كان الشعر عند الاقدمين من ادبائنا الاَّ كما قال الصابي — وصف الديار والآثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء . والطلب والاجتداء . والمديح والهجاء [5] .. وبعبارة اخرى الفاظاً يطالون فيها بوصف اشواقهم و يتزلفون بها الى ملوكهم وامرائهم

على اننا اذا نظرنا الى الشعر من حيث هو فن جميل متأصل في اعماق الحياة شديد التأثير في تقدم الانسان فاننا نضطرُّ ان نخالفهُ كما خالفهُ كثيرون من الباحثين في طبيعة الشعر وتطوُّر الفكر

الشعر شعور داخلي يجيش في صدر الشاعر الحقيقي متكلماً عن احوال خارجية عنهُ او داخلية في اعماق نفسهِ . وهذا الشعور صادق وهو من قوى الحياة الفعالة واثرهُ عميق في الحياة الانسانية . ونحن اذا طربنا لنغمات الشاعر المطبوع فلتأثرنا بشاعريتهِ الدقيقة التي تتفوّق حكمةً واخلاصاً . ولا يستحق الشاعر ان يسمى شاعراً ما لم يملكهُ الوحي العلوي الذي يرفعهُ عن الدنايا و يتلاعب باوتار نفسهِ فيرسل منها نغمات الحياة المطربة . فالشعر

---

(١) بحث انتقادي في الشعر اعده الاستاذ انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية للجنة التي تنتظر اقامتها لتكريم الشاعر الكبير احمد شوقي بك وقد عرض فيها نظراً جديداً في اركان الشعر ومراميه العالية نتوجه اليه الانظار وعسى ان يطالعها اولو الرأي من كتابنا وشعرائنا بما هي جديرة به من اتمام النظر (المقتطف)

(٢) مقدمة اللزوميات ٤٣ (٣) الشعر والشعراء ٦١ (٤) المزهر ج ٢ — ٢٣٥

(٥) المثل السائر ١٠٠

عواطف موزونة تتدفق بها الكلمات بعد ان يكون الشاعر قد بلغ قمم الحياة وغاب مكرماً في اعالي الوجود. قال لول (Lowell) في قصيدته كولمبوس — الشعراء هم الذين يستخرجون الحكمة من الاعماق ويصغون الى مجاري الوجود الخفية فينطقون للناس بآيات الابدية [1]

﴿ عنصرا الشعر ﴾ وفي طبيعة الشاعر عنصران البداهة والاختبار. فالاول وليد الفطرة وهو راجع الى حالة النفس الطبيعية وفيه يشترك الشعراء اجمعون لا يفرق بينهم زمان او مكان. ويشمل العواطف الفطرية من حب وتفجع وحزن وشجاعة وما اليها. وقد بلغ الاقدمون في ذلك مبلغاً سامياً وتركوا من آثارهم ما حمل البعض على رفعهم الى مقام المثل العليا. ولعل لهم وجهاً من الصواب في ذلك لان الامم في اطوارها الاولى تعتمد بالاكثر على القوة البدنية وما يلازمها من وعورة في الاخلاق وحرية في الطباع. اعتبر ذلك في عرب الجزيرة قديماً وحديثاً وما يمزونهُ اليهم من البأس والشجاعة والكرم والصبر على المكاره. وذلك كما قال ابن خلدون [2] لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الفواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب. فانهم للمدافعة عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم. يحملون السلاح ويتلثمون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع ويتوحشون للنبآت والهيعات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بانفسهم قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية اه. واعتبر ذلك في قبائل الجرمان التي سطت على الدولة الرومانية وما كانت تعرف به من القوة والاباء وصلابة النفس. قال ماير في تاريخه معدداً العوامل التي ادت الى سقوط رومة ومن ذلك تسرب الجرمان الى اقطار المملكة واقامتهم فيها وبثهم روح الحرية الشخصية بين افرادها [3] وقال برستد عنهم: [4]

ان معيشة هؤلاء الجرمان في بلادهم الاصلية التي يشتد فيها الزمهرير جعلتهم اقوياء البنية ذوي بأس وجلد على تحمل المشاق. والشعب الذي تجتمع فيه قوة البنية والجلد والبأس يميل غالباً الى الحرب والغزو والنهب. ولم يوجد في العالم القديم من كان يفوقهم في شدة البأس. والسر في ذلك كله هو انهم كانوا مرتبطين بعضهم ببعض بربط القرابة الدموية وكانوا اذا خرجوا الى الهيجاء يسيرون متهللين ومتى هجموا كان هجومهم عنيفاً جداً حتى لا يستطيع احد ان يثبت امامهم »

(١) Stedman-The Nature of Poetry p 5
(٢) المقدمة ١٢٥ (٣) Ancient Hist. 500 (٤) العصور القديمة ترجمة زيدان ٤٦٨

وقد ذكر رولنسون حياة البارثيين القدماء قال: وكثير الطورانيين يقضون حياتهم على ظهور الخيل و يقومون باعمال الفرسان الاشداء [٥] وما يصدق على هؤلاء يصدق جملة على جاهلية كل امة فلا جرم اذا رأينا لعواطفهم في ذلك سورة ولما في نفوسنا روعة على بعد ما بيننا و بينهم في الزمان والاحوال

﴿ لماذا نعجب بالشعر القديم ﴾ وماذا يعجبنا مثلاً في المعلقات العربية ونحن في زمن يختلف كثيراً عن زمن الجاهلية غير تلك العواطف الشديدة التي تمثل لنا اخلاق الانسان الفطرية والتي يشترك فيها على درجات متفاوتة الحضري والبدوي — ابن الجاهلية القديمة — وابن المدنية الحديثة

والا فأيّ جمال في الرمضاء تسير فيها ظعائن البدويات كما وصفها طرفة ؟ وأيّة روضة نضرة في منظر ثور وحشي تهيجهُ الكلاب وتخرجهُ فيرتدُّ عليها و يطعنها كما قال النابغة — يقرن كسفود شرب نسوهُ عند مفتأد — واي اناقة ولطف في وصف امرىء القيس لخادرتهِ مع عنيزة وصواحبها في دارة جلجل. او في واقعة عمرو بن كلثوم مع ابن هند ملك الحيرة. ولماذا نهتم بدرس هذه القصائد اليوم وقد مات الكثير من الفاظها واسدل الستار على معظم مناظرها وحوادثها ؟ هي العاطفة الشعرية الفطرية كانت ولا تزال مصدراً من مصادر الجمال وهي التي تميل بنا الى القديم الغابر وترينا من مناظرهِ ما يسر الخواطر. ولهذه العاطفة فعلها في كل الامم حتى التي صارت شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة. ولذلك ترى الغربي الحديث يهتم بشعر الاقدمين و يترنح لجمال العواطف فيهِ . وما تكريمه لقصائدهم الا مثل على تكريم الشعر الطبيعي والتأثر من العاطفة الفطرية. ولو نظرت الى الشعر الغنائي او الوجداني وحللت اسباب الجمال فيهِ — ذلك الجمال الخالد الذي يمسُّ النفس و يثير العواطف فيحدث فيها نشوة تُملها — لوجدتهُ من هذا القبيل . اذ هو راجع الى العواطف الفطرية التي تشترك فيها الامم والعصور . ولنا في الشعر العربي منهُ ما تفاخر بهِ على مدى الدهور . وهذا النوع من الشعر لا يتهاون بهِ ويظلُّ ابداً ركناً رئيساً من هيكل الفن العالي

﴿ الاختبار ﴾ اما الاختبار فهو المعوَّل عليهِ في تطوُّر الشعر ولتقدُّمهِ و بهِ تختلف الاجيال والامم. الا ترى مثلاً ان اختبار الجرمان يوم غزوا رومة غير اختبارهم اليوم . وان معتقدات عصر دانتي غير معتقدات هذا العصر . وعواطف المهاجرين الاول الى العالم الجديد غير عواطف الاميركيين الحديثين. الاختبار يوسع دائرة الفكر ويفتح للخيال

(٥) The Sixth Empire 125

مجاري جديدة يشاب منها فيأتي بما لم يعهدهُ السابقون . وليس الشعر وليد الفطرة فقط بل هو وحي العوامل الخفية التي ترفع النفس وتدفع البشر الى المنازل العلوية وسيفي ذلك يجب ان يفوق العصرُ الحاضر العصورَ الغابرة . وكلما تقدمت الحضارة ارتقى الفكر واتسع نطاق العاطفة الشعرية . ولعوامل الرقي في الكون هدف ترمي اليهِ وهذا الهدف هو مرمى الشعر الخالد ومطلب الفلسفة الحقيقية . هو الغاية العظمى من الوجود وما الشعر الاَّ المؤذّن عند شق الفجر يرسل الحانهُ الشجية داعياً اهل الفكر اليها

﴿ الغاية العظمى ﴾ وهذه الغاية سواء طلبناها في الدين او في العلم والفن هي السعادة . فالدين يجعلها نتيجة الايمان بما وراء المعقول ولهُ في ذلك احكامهُ وشرائعهُ . والعلم يشدها في السعي وراء الحقيقة الراهنة وادراك اسرارها . والفن في الارتفاع عن السفاسف الى مجالي الجمال الاسنى والتلذُّذ بهِ . وفي هذا السعي وراء الغاية العظمى تمشي الفلسفة والشعر جنباً الى جنب ويعملان بالبشر الى ما يرقيهم ويهذّب نفوسهم ويريهم مجالي الحياة وعظمة النفس

واذا سأل سائل كيف ذلك نجيب — ان للفلسفة وجهتين . وجهة يقينية وهي النظريات المبنية على البرهان او الادلة العقلية . كأن نقول مثلاً ان الكون من احياء وجمادات سلسلة متصلة الحلقات ثم نتقدم الى بيان ذلك بما لديك من الادلة والبيّنات . وهذا مذهب الفلاسفة اليقينيين او البرهانيين كارسطو وابن رشد وكانت ولوتزي وسبنسر وهيجل وسواهم . ووجهة خيالية وهي الرؤى المبنية على دقة الوجدان وحدة النظر وتلهب الطبع . كأن نقول مثلاً ان السعادة قائمة على الحب والتضحية او ان الاخاء الانساني العام هو غاية الارتقاء او كما يقول طاغور الوحدة الروحية هي السبيل الوحيد الى السلام . ثم تدعم قولك بما يوحي اليك من ادلة تشعر بها في طبيعة الانسان وفي مظاهر الوجود وهو مذهب المفكرين الخياليين الذين يتناولون مسائل الحياة الكبرى فيصورونها بصور تملك العواطف وتستهوي النفوس . ومن هؤلاء الانبياء والشعراء الملهمون في كل امة واليهم يرجع الفضل في هداية البشر واصلاح احوالهم . هذه المسائل الكبرى كانت ولا تزال الشغل الشاغل للشعر في كل عصر وهي لهُ كما للفلسفة ارفع مصادر الوحي واشرف مرامي الخيال . واذا كانت غاية العلم طلب الحقيقة الراهنة فان غرض الشعر طلب الحق الادبي لا عن طريق الاحكام والنظام او قواعد الجدل والكلام . بل بكشف اسرار الجمال وتوجيه الانظار الى المثل الاعلى في الحياة

الشعر العالي لا يحتمل الدنايا ولا صبر لهُ على السخائف . نعم ان الشاعر انسان لهُ زلاتهُ وآثامهُ وقد يسقط باعتدائهِ على احكام الناموس الذي يدعو اليهِ. ولكنهُ لا يلبث ان يعترف بسقطاتهِ و يثور اذا رأى ذلك الناموس مداساً لاقدام المعتدين . فالروح الشعرية عند التحقيق قوة ادبية عظمى — مشعال روحي يضيء للبشر سبل الكمال. ولقد يحملهُ الشاعر ويسقط نفسهُ في مهاوي الحياة ولكنهُ رغم سقوطهِ وضعفهِ يظل رافعاً اياهُ مهيباً بالناس احذروا احذروا سبل الضلال ! هكذا عاش بعض من كبار الشعراء في كل زمان المشعال بيدهم وهم يتخبطون في الظلام تتقاذفهم الشهوات وتساورهم اباطيل الحياة

﴿ المقياس الادبي ﴾ ومهما كان الشاعر الحقيقي فان وراء الحانهِ مبدأً يتجسم فيهِ وعليهِ تتوقف كرامتهُ وتأثيرهُ . وهذا المبدأ هو مقياسهُ الصحيح في تاريخ الادب

المتنبي — خذ المتنبي من شعراء العرب مثلاً واعرض امامك اشعارهُ ثم ارجع الى نفسك وتأمل مشهد الجمال الدائم في شعرهِ فترى انك قد نسيت غلوهُ في مديحهِ وقذعه في هجائهِ . او تماديهُ في كبريائهِ وتمننهُ في اوصافهِ . وتجسم لديك منهُ جمال خفيٌّ — نور اكبر يحجب سائر انوارهِ كما يحجب البدر نور النجوم . وهو شخصيتهُ الحقيقية التي تتجسم لديك في نظرهِ الى القوة وانها اساس السعادة . فما المتنبي الذي نكرمهُ ونجلُّ شعرهُ مداحة سيف الدولة او كافور . ولا هو ذلك الروح الطماع المتخور . بل هو تلك الشرارة المنبعثة من اصطدام الطموح الدنيوي بالفشل والخيبة . هو شاعر الحياة في عصرهِ ومصوّر نزعاتها واحوالها بحكمهِ وامثالهِ . والشاعر الحقيقي ابداً هو شخصيتهُ الفكرية او تلك الصورة العالية التي تراها في خيالاتهِ وتأملاتهِ والاّ كان المقياس الادبيُّ بيانيًّا بسيطاً لا يتجاوز بعض القواعد والنكات . وما اكثر الشعراء الذين نقيسهم بهِ

المعري — وخذ المعري وادرس شعرهُ ثم تأمل تأثيرهُ واسأل نفسك بعد ذلك لماذا أكرم المعري وما هذه القوة الفعالة في شعرهِ ؟ لاسرار انك اذا نظرت اليهِ جملة تتغاضى عن تكلفهِ ولزومهِ وتتسامى حرارتهُ في تشاؤمهِ وانتقادهِ . وتتراءى لك منهُ ما يملأك روعة وجلالاً — مبدأهُ في الحياة والوجود واعتقاده في الانسان والعمران « الخير العام في الفناء العام » مبدأ يهولنا وقد يهيج بنا شعور الكراهية والازدراء فنتكر على الشاعر القائل بهِ اصابتهُ المرمى الاسمى في الحياة . ولكننا مع كل ذلك نكرمهُ ونعظمهُ ونرفع ابصارنا اليهِ كما نرفعها الى جبل النار تنبعث منهُ الحمم على العامر من الاعمار. تلك النفس المضطربة تلاطم امواجها اسس الحياة الانسانية ومع ذلك ترتاح الى نغماتها ونتقدم

بالاكرام الى صاحبها لا لانهُ هدّام ينادي بالخراب والفساد بل لانهُ مفكر بعيد المرمى ، يحاول ان يخترق السدول الى مالا تدركهُ العقول - وكفى بذلك سبباً لاكرام الشاعر

الفارض — وما يقال عن المتنبي والمعري من شعرائنا يقال عن الفارض ايضاً . وقد طالما وزنا شعرهُ بميزان البديع والرقة في التعبير وقسناهُ بمقياس الغزل والاشواق وهو ولا نكران من المجيدين في هذه الابواب . ولكن الفارض الحقيقي شيءٌ فوق ذلك . واني ما قرأت شعرهُ مرة وحاولت ان اتفهم معانيهِ الاَّ وحملني الخيال اليهِ مجاوراً بهيم في اودية مكة واكامها ثم في مصر ذاكراً مشتاقاً فيطير واطير معهُ الى ما يحسبهُ المثال الاعلى — حيث يشرب سلافة السماء — هنالك يمتزج بالروح الاعظم مدفوعاً اليهِ بعامل الشوق الروحي فتتجلى لهُ في ذلك الامتزاج صورة الجمال المطلق تجلياً ينسيهِ العالم المادي . والناس في الحياة الدنيا ينظرون اليهِ ويقولون هو في غيبوبة الاولياء وقد يبلغ الجهل ببعضهم ان يتهكموا بمن كان في مثل حالهِ اذ لا يستطيعون ان يروا في الوجود غير المادة العمياء . « السعادة في الحب الاسمى » ذلك هو الفارض وكل ما تراهُ في شعرهِ من تأنق وحسن صياغة انما يعكس لنا تلك الروح العالية والاَّ لم يخرج الفارض عن ان يكون شادياً يرجّع بعض العبارات متلاعباً بالحانها فيسرّنا الى حين ثم لا نلبث ان ننسى الفاظهُ ونغماتهِ

شوقي — بهذا المقياس الادبي السالي نقيس شخصية الشاعر الكبير في كل جيل وفي كل زمان . ولو التفتنا الى وقتنا الحاضر واحببنا ان نرسم صورة احد من اكابر شعرائهِ لما استطعنا الى ذلك سبيلا دون ان نحاول الوصول الى المجرى الفكري العام او الروح الكبرى التي في وراء مظاهرهِ المتباينة . ولعل شعر شوقي افضل مثال على ذلك . فشوقي في مظاهر ديوانه مدّاحة . منادم . وطني . محب . حكيم . وكذلك الكثيرون من الشعراء في هذا الزمان . ولكن المدقق في شعرهِ يرى فيهِ (قد لا يراهُ الشاعر نفسهُ) مجرى عاماً هو حقيقة الشاعر التي تميزهُ عن الكثيرين . اعني بهِ تلك الروح القومية العالية التي ضرب الشاعر على اوتارها فهزّت الشرق العربي من اقصاهُ الى اقصاهُ . فما شوقي في تاريخ الادب ذلك الثوب المضياف تحت كرمة ابن هاني[1] . او ذلك المنادم الكيّس في بلاط عباس الثاني . بل هو الروح الشرقية في هذا العصر تظهر في مفاخر الخلافة والاسلام والعرب ووادي النيل . الروح الشرقية مهيبة بالشرقيين الى العلى دافعة بهم الى الامام .

(١) كرمة ابن هاني اسم اطلقه شوقي على منزله في للطرية بمصر اولا ويطلقه الآن على داره بالجيزة

ان لشوقي دينه ودنياهُ او كما قال الدكتور هيكل في مقدمة الشوقيات «ذلك الازدواج الذي يبديهِ لنا في مظهرين شاعر الحياة العربية بحضارتها الاسلامية وبما فيها من قدم وايمان وشاعر الحياة الغربية الخاضعة لحكم العلم وما يكشف عنهُ كل يوم من جديد» . ولكن منزلتهُ التاريخية قائمة عندي على انهُ مظهر الروح الشرقية في سعيها نحو العلى . والاَّ فقد يكون لشوقي مع كل ما أوتيهِ من بلاغة و بيان نظراء في عالم الشعر يجارونهُ في ميدان النظم وربما بذّوه في بعض مناحيهِ

﴿ المرامي الفلسفية ﴾ الشعر العربي في الدرجة الاولى وجداني يرجع الى وجدان الشاعر او عواطفهِ الشخصية وفي ذلك كما ذكرنا آنفاً قد اجاد العرب كثيراً و بلغوا أعلى المراتب . على انهم قلما اهتموا بالنظم الفكري او الفلسفي اللهم الا في الحكم والامثال وهي عظات الحياة يحيي بها الشاعر عند الحاجة . وقد تقدمهم الغربيون في النظر الى الكليات او في استيعاب الحقائق العامة ولعلَّ لطبيعة الجنس بدءاً في ذلك . قال رنان Renan في كتابهِ تاريخ اللغات السامية ما تعريبهُ «يحتاج الشعر السامي الى التنوع فمواضيعهُ محدودة ونفسهُ سرعان ما ينتهي امدهُ . والحق يقال ان الساميين لم يعرفوا غير نوعين من الشعر . الشعر الحكمي (الامثال) وقد بلغ في امثال سليمان كمالهُ . والشعر الوجداني (الغنائي) Subjective-Lyrique وهو من مزايا العربية والعبرانية . على ان هذه المزية مقرونة فيهما بفقدان الخيال المبتكر — الشاعر السامي لا يفتكر بما هو خارج عن نفسهِ فلا تجد في كلامهِ اثراً للتخيلات الروائية او للنظومات الفنية الكبرى واردف ذلك بقولهِ « فليس للجنس السامي عموماً اساطير الهية Mythologie ولا شعر قومي Epopée ولا علم ولا فلسفة ولا حياة اجتماعية منظمة و بكلمة لا تنوع ولا تفنن اذ هو موحد والتوحيد يقتضي البساطة »[1]

ولا ريب ان في كلام النقاد الافرنسي بعض الغلو على ان هناك حقيقة لا تنكر وهي ان الطبيعة السامية كما تظهر في الشعر العربي وسواهُ لم تخض عباب الحياة الفكرية بل ظلت عواطف تضرب على وتر واحد وتغني نغمات شجية

ومهما حاولنا ان ندافع عن شعرنا من هذا القبيل فنحن لا نستطيع ان نفصل الشعر العالي عن الفلسفة . قال شاعر الهند طاغور في محاضرتهِ الاخيرة في مصر ان الغاية من الفنون والآداب في اظهار الحقيقة الازلية وجعلها واضحة ملموسة . هذه الحقيقة المجردة —

(١) Hist. des Langues Sémitiques 10—11

الحقيقة المطلقة يجب ان تكون التحرر من قيود الامور الواقعة — الماديات — والانطلاق الى حيث تجد النفوس ما تتوق اليهِ من حقيقة الحياة الروحية التي هي اساس الكمال الانساني[1]

وما هو هذا التنوع الفني الذي يتصف بهِ رنان اللغات الآرية الهندية. او هذه الحقيقة المطلقة التي جعلها طاغور غاية للشعر العالي الا النظر الفكري الواسع محمولاً على اجنحة الخيال . ولم يخالف طاغور في شعرهِ هذه النظرية بل انشد لنا فلسفة الحياة العليا وجعل في ذلك للشرق مقاماً ادبياً ساميا. ولو نظرنا الى الشعر الغربي لوجدنا فيهِ امثلة عديدة على ذلك اكتفي الآن بثلاثة منها

﴿ ١ — الرواية الالهية لدانتي ﴾ وهي من البدائع الشعرية نظمت في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد . شبعة بالروح الدينية السائدة في ذلك القرن . على انها ليست عظة دينية او تعليماً لاهوتياً بل هي نظرة واسعة في الحياة الانسانية (كما تراءى للشاعر في جو السياسي الاجتماعي) ودرس عميق في اسباب الشقاء وعواقبهِ . والذي اوقد نفس دانتي على ما روي تدفعها الى هذه التأملات الفكرية العالية محبة مست قلبهُ وملكت عواطفهُ على ان الدهر لم يساعدهُ على هذا الحب فاقصيت عنهُ قبلة آمالهِ (بياتريس) ثم اختارها الحمام فكان لذلك (اعني لاضطرارهِ الى البعد عنها ولموتها) اثر شديد في نفسهِ وثورة روحية في وجودهِ ظهرت بعدئذٍ في روايتهِ المشهورة . واننا لنشفق على الشاعر المحب اذ نراهُ يتألم في شقائهِ ونود لو نستطيع ان نساعدهُ في آلامهِ على ان الآلام مفتاح العبقرية والدافع الى عظائم الاعمال الفكرية . واي عمل فكري اعظم من قصيدة دانتي . قرأتها لاول مرة في المكتبة الاهلية الكبرى بنيويورك ثم شاهدتها بالسينما في احدى دور التمثيل في بغداد فحظيت منها باللذتين جمال الاوزان وجمال الالوان . وكلُّ مشاهد الرواية من جحيم ونعيم رمزية وراءها مرامٍ ادبية عالية قلما يدركها الا الدارس المتأمل

نرى الشاعر في اولها واقفاً في غاب الحياة الكثيف وهو يحاول الخروج منهُ فيعترضهُ في السبيل اهوال (مطامع الحياة وشهواتها) ثم يلتفت علهُ يرى معيناً فيتراءى لهُ الشاعر فرجيل يسكن روعهُ و يقول قد ارسلني اليك من الملأ الاعلى ثلاث سيدات — احداهن بياتريس — وفي القصيدة فرجيل رمز الفلسفة او الدين الطبيعي و بياتريس رمز الوحي

(١) المقتطف (يناير) ١٩٢٧

الديني . ثم يقوده الى ما وراء الحياة فيهبطان اولاً العالم الاسفل (الجحيم) فيرى دانتي عدداً كبيراً من مشاهير الناس ملوكاً واحباراً وشعراء وعلماء وتجاراً وسواهم يتعذبون ويتألمون في دوائر مختلفة كلٌّ بحسب آثامه

وبعد جولة كبيرة هناك تُمثل له فيها عواقب التمرد على الناموس الروحي والادبي يصعد مع قائده الى مطهر النفوس وهو سبع طبقات يرتقيها الذي يستحق التطهر طبقة طبقة (هذا رمز الى ان السعادة لا تنال الاَّ بالجهاد والمشقة والاحتمال او كما قال ابو تمام على جسر من التعب) حتى يصل الى الطبقة العليا وهي الفردوس الدنيوي . يمرُّ دانتي في تلك الطبقات و يذوق مرارة ذلك الاجتياز حتى اذا وصل الى الطبقة العليا ظهرت له بياتريس فيتركه عندها فرجيل ويختفي . فيطلع مع فتاته صعداً في السماء وهي سبعة افلاك بعضها فوق بعض حتى يصل الى السماء العليا او مصدر الكون الاسمى وهناك يرى مالا يُرى . يرى الحق السرمدي و يطلع على الاسرار التي هي منتهى العلم فتمتزج ارادته بارادة الله و بذلك تنتهي الرواية

ولا شك ان للفلاسفة اليونان اثراً في رواية دانتي فهو يجاري ارسطو في تقسيم الجرائم (او اضداد الفضائل) و يزيد عليها شيئاً من اختبارات عصره . ويجاري الافلاطونية الجديدة في ان الخير المطلق هو هدف الكون الاسمى ومنها يستمد فكرة الافلاك السفلى والعليا فالخير الاعظم او المصدر الاسمى ينبثق منهُ العقل فالنفس وهذه متى اتحدت بالجسم صارت مجبة ولا تنال سعادتها الاَّ بالرجوع الى المصدر . وهنا يلتقي دانتي بالفارض (شاعر التصوف العربي) الذي يدفعهُ شوقهُ او هيامهُ بمصدر الجمال الى الانفصال عن المادة والاتحاد به . على ان الفرق بين الاثنين ان الفارض لا يرى غير نفسه (طبيعة الوحدة السامية) فهو مشوق الى الوصول الى السعادة و يظهر شوقهُ بعواطفه الشجية المنبعثة عن اوتار قلبه . اما دانتي فيتخذ الفكرة اساساً لهيكل فلسفي يجمع مختلف الطبائع والاشخاص فيصوّر صوراً شتى وماآتٍ مختلفة يوجهها جميعها نحو غرضه ، ذلك كالحامة تلتقي على غصنها الميّاد وهذا كالجوق يجمع اصواتاً عديدة واوتاراً مختلفة في صوت عام . او كالمصور يرى الطبيعة امامهُ يرسم منها صورة مختلفة الالوان كثيرة الظلال ولعل ذلك ما يقصده رنان بالتنوع في شعر الآريين

والجميل في رواية دانتي ان الشاعر لم يجعل العذاب قصاصاً ينزلهُ الله على المجرمين (الفكرة الدينية السائدة في كل الاديان) بل حالة طبيعية تلازم الجرم ابداً . خذ الحب مثلاً فهو في طهارته بهجة منير لا يستطيع التوقف عن الارتقاء الى العلى . واذا كان

فاسداً فهو قاتم بلا روح يقف في الحياة كأن امامهُ سدًّا يمنعهُ عن التقدم الى السعادة — الى الحياة الفضلى . وهذا الوقوف عن التقدم هو القصاص الطبيعي . وهكذا نرى باولو وفرنسسكا يعيشان معًا في الجحيم في حياة عملة خالية من البهجة والجمال . وما الشقاء الناتج عن التعدي على ناموس الفضيلة الاَّ نتيجة لازمة يندفع اليها المجرم من تلقاء نفسهِ . فلا يحتاج الى زبانية تدفعهُ الى نار العذاب . كذلك اهل المطهر (الذي هو رمز الى سبيل التخلص من الشر) لا يقيمون فيهِ مكرهين بل بارادتهم المطلقة وما دام في القلب البشري فساد فذلك الفساد يولد فيهِ الميل الى الانغماس في الشقاء والالم ولن يتخلص منهما الاَّ بالارادة الصالحة وتطهير النفس من الفساد — صورة جميلة — وكل الرواية الالهية صورة جميلة . وماذا لعمري يقصد بالشعر العالي الاَّ استخدام الخيال الجميل لاجل فكرة عالية ؟ ولعل دانتي بلغ غاية الغايات في ذلك

﴿ رسالة الغفران ودانتي ﴾ ولقد ذهب بعضهم ان رواية دانتي مأخوذة عن حديث الاسراء والمعراج[1] النبوي وقال غيرهم عن رسالة الغفران التي وضعها المعرّي قبل دانتي بنحو من مئتي سنة ولعل البحث يكشف لنا حقيقة الاتصال التاريخي بينهما على ان الاثنتين كتبتا في جوين مختلفين ولاغراض متباينة . العربية تدور على وصف الآخرة ومحاورة من فاز فيها بالمغفرة من الشعراء والادباء ومن حرمها فكان نصيبهُ العذاب والشقاء . وهي تنمُّ عن نفس ساخرة « ولكن سخريتها كما قال احد الباحثين ملطفة ومغطاة بالغريب من اللفظ حتى لا تظهر معارضتها للدين »

واذا تأملت فكرتها الدينية وجدتها ضئيلة كما هي في النفس المشككين المتحيرين فليست صورة الله في رسالة الغفران بتلك الصورة العالية التي ترسمها رواية دانتي ولا طريق الخلاص بتلك الطريق الوعرة التي يضطر فيها المرء الى احتمال المشقة القصوى لتطهير النفس من الادران والحصول على السعادة . بل هي هناك طريق هينة جدًّا . لا اثر فيها للفضيلة او للجهاد الروحي — بيت من الشعر او كلمة من الحكمة يقبلها الله من مهتك او زنديق او كافر او اثيم فيغفر . وكذلك الفرق بين جحيم دانتي وجحيم المعري . على ان ذلك لا يناقض القول باشتراك الشاعرين الكبيرين في الخيال — اعني في الرحلة الى الآخرة ووصف اهوالها ولا يوصد الباب في وجه من يقول بان العربية اصل للاتينية

(وفي الجزء التالي وصف لقصيدة فوست للشاعر جوته وقصيدة الذكرى لتنسون وخلاصة آراء الكاتب الثمينة في هذا الموضوع

(١) راجع كتاب Islam & The Divine Comedy المترجم عن الاسبانية

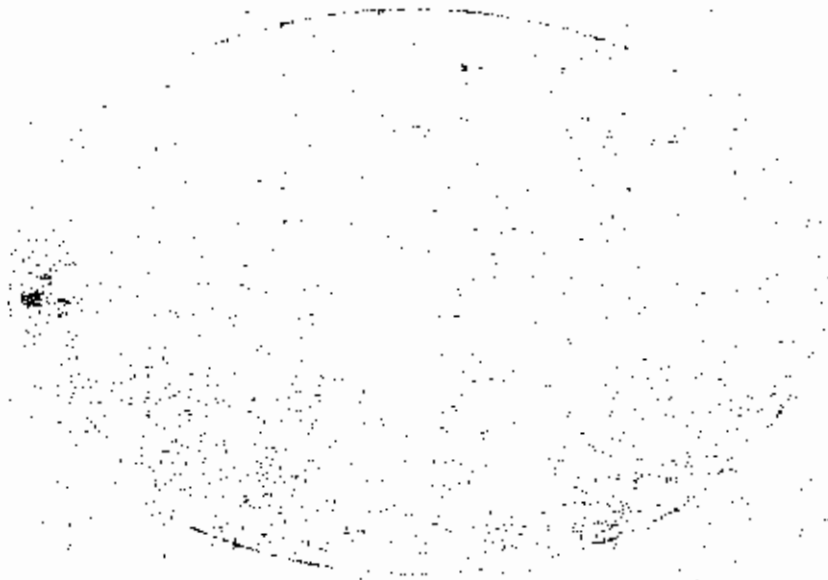

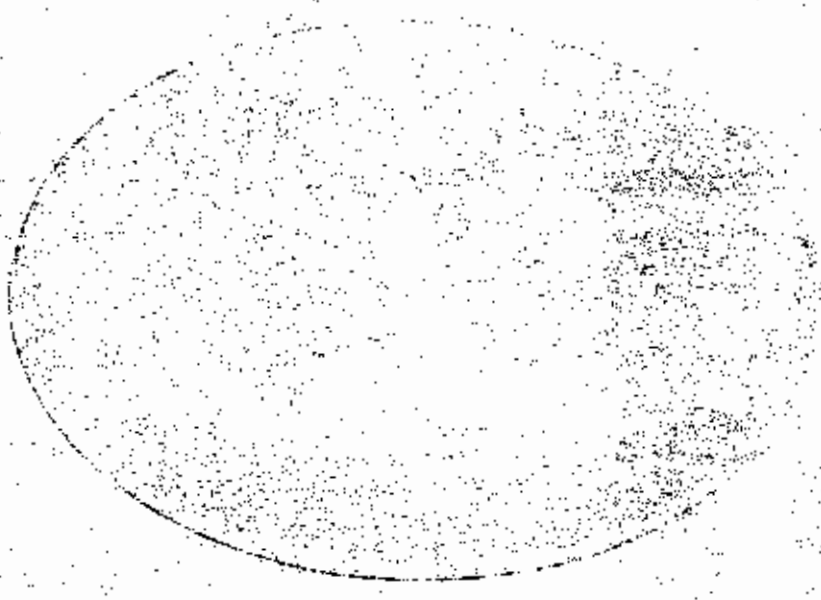

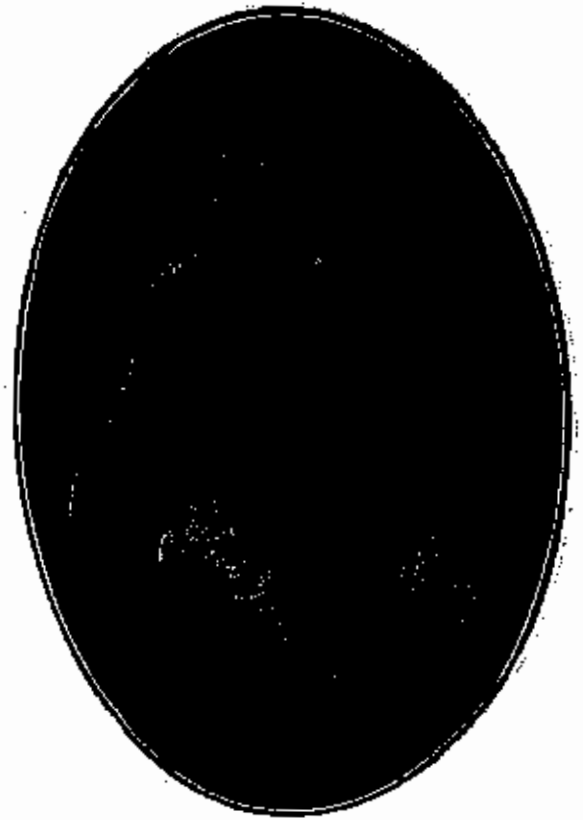

صورة زيتية لنيوتن صورت قبل وفاته

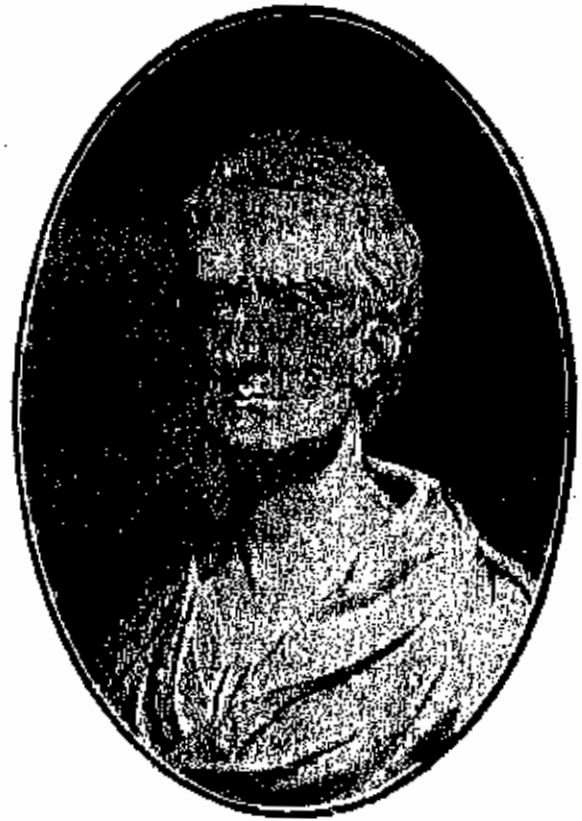

تمثل نصفي لنيوتن في شبابه

مقتطف مايو ١٩٢٧

امام الصفحة ٥٠٩